أشكال وصور الاحتفال الشعبي

في رواية "والد وما ولد طفولة في سفح الظل" لأحمد التوفيق

الباحث إدريسي العربي

الأستاذة المشرفة: ذو الوئام سميرة

جامعة ابن طفيل، المغرب

مقدمة

ترصد رواية "والد وما ولد طفولة في سفح الظل" حياة طفولة الكاتب والمؤرخ "أحمد التوفيق" في فترة ما قبل الاستقلال، وهي في نفس الوقت ترصد مرحلة من تاريخ المغرب الحديث، تاريخيا واجتماعيا، لتكون بذلك قد غاصت بشكل ذكي في الذاكرة الفردية والجماعية في آن واحد، وحفرت في ماضي البلد، مما يجعل منها وثيقة تاريخية أضاءت جانبا من تاريخ المغرب.

فالكاتب قام بتصوير الحياة حوله بمختلف مكوناتها، ساعيا إلى تفسير العلائق والوقائع بحسب فهمه لها، أو بحسب فهم المشاركين فيها، أو بحسب فهم شهود من الجيل الذي سبقه، محاولا أن يكون صارما في كتابته حسب تعبيره في إحدى جلسات تقديم الرواية، صرامة يدين بها للتاريخ لأنه صارم.

ورغم وجود نوع من التعاقد منذ البداية على كون النص سيرة ذاتية، رغم لجوء الكاتب إلى استعمال ضمير الغائب، رغبة منه في امتلاك حرية أكبر في الكتابة، يحكي في هذه السيرة جزءا من حياته، إلا أن الغوص في النص يعطي انطباعا بأنها سيرة غيرية، أو سيرة مجتمع، سيرة غيرية لأن جل وقائعها محورها الوالد، فالنص احتفاء بالوالد وإبراز لدوره الكبير في نشأة الولد، وسيرة مجتمع لأنها تحتفي بالمجتمع، وتصور جوانب عدة من مكوناته، سواء التاريخية أو الاجتماعية.

فعلاقة بالتاريخ، تعتبر الرواية عامة الجنس الأدبي الأكثر ملاءمة لإدراج الوقائع والأحداث التاريخية فيها، لذا يلجأ الكثير من الروائيين المؤرخين إليها سعيا لتقديم التاريخ، لقدرتها على الوصول لأكبر جمهور ممكن، ولخصائصها المتمثلة في تسامحها وتعايشها مع باقي المعارف والعلوم.

أما اجتماعيا، فالرواية قادرة على وصف وتصوير أسلوب حياة المجتمع، من تقاليد وعادات وقيم وأدوات وفنون ومأثورات شعبية. لنجد أنفسنا أمام رواية ذات بعد إثنوغرافي، فالرواية الإثنوغرافية كما يصفها "عبد الكبير الخطيبي": "تهتم بالوصف الدقيق للحياة اليومية، خصوصا ما يتصل بالطبائع والعادات"[1]، وهذا ما تقدمه رواية "والد وما ولد طفولة في سفح الظل"، وصف دقيق ومفصل للمجتمع المغربي، في حيز مكاني معين (قرية إمرغن بالأطلس الكبير)، وفترة زمنية محددة (قبل الاستقلال)، وما التذليل الذي وضعه الكاتب لشرح الكلمات الغامضة، واستعمال ألفاظ وعبارات مستمدة مباشرة من العربية الدارجة ومن الأمازيغية، إلا تأكيد لهذا التوجه.

ولأن المواضيع المصورة متعددة وغنية، بغنى المجتمع المغربي وتعدد أطيافه، فقد وقفنا في هذا العمل على جانب واحد منها، ألا وهو الاحتفال الشعبي. فتعدد مظاهره وأنواعه ومناسباته ظاهر في النص، والنص غني بهذه الاحتفالات، صورها في مظاهرها، وأبرز أسبابها ودوافعها، وحدد أهدافها ووظائفها، تماشيا مع التوجه العام للكاتب، من خلال ما سبق ذكره من محاولته تفسير العلائق والوقائع.

وسيهم اشتغالنا بالأساس رصد صور وأشكال هذه الاحتفالات في المجتمع الذي تحدث عنه النص، مع محاولة لإبراز أنواع هذه الاحتفالات، مسبوقا بتعريف للاحتفالات الشعبية ومميزاتها وعلاقتها بثقافة المجتمع وخصائصه.

1. الاحتفال الشعبي

الاحتفالات الشعبية ممارسات نمطية تحتوي على طقوس شعائرية وجوانب سوسيوثقافية: "إن الاحتفال هو المقولة الأولى للحضارة الإنسانية والتي لا يمكن تدميرها. قد تصير فقيرة، بل قد تضمحل، لكن لا يمكن أن تنمحي كليا... أيام الاحتفال قد تكون أبواب البيت مشرعة في وجه الضيوف (وعلى أكبر تقدير، في وجه الجميع، كل الناس)، أيام الاحتفال يتم توزيع كل شيء بكثرة (أطعمة، ملابس، زينة الغرف) ... إن الاحتفال متلخص في كل معنى نفعي (إنه راحة، واستراحة)"[2].

تتميز الاحتفالات الشعبية بمجموعة من الخصائص، فهي مرئية، يمكن مشاهدتها ورصدها، وفيها تتجلى جوانب من الثقافة المادية للمجتمع، من انتاجات العمل الإنساني الملموسة التي يستعملها الفرد، من أدوات وملابس وغيرها. كما أنها تعكس جانبا من الأدب الشعبي باعتباره مستودعا لخصائص الشعوب، من شعر وأمثال وقصص.

والفرد في الاحتفالات الشعبية "يحس بأنه جزء لا يتجزأ من الجماعة، عضو من أعضاء الجسد الشعبي الكبير"[3]، ففي هذه الاحتفالات يكون للأفراد الحرية التامة لاختيار موقعهم داخلها، إما مشاركين أو متفرجين، فبعض الاحتفالات ذات الطابع الكرنفالي هي: "بمثابة المشهد المسرحي من غير أضواء أمامية ولا تقسيم للحاضرين داخل المسرح إلى ممثلين ومشاهدين... الكرنفال لا يشاهده الناس، وإن أردنا الدقة، حتى لا يؤدى تمثيلا، وإنما يعيش الناس فيه"[4].

فرواية "والد وما ولد طفولة في سفح الظل" تحكي عن طفولة الكاتب من سن الخامسة إلى الثانية عشرة. وما دام الفضاء الجغرافي الذي نشأ وترعرع فيه محافظا من جهة، وقرويا من جهة أخرى، فإن لحضور الدين والاحتفال نصيب مهم في الرواية. ترى ما هي أنواع الاحتفالات الشعبية التي ورد ذكرها في هذا النص؟ وكيف صورها الكاتب في نصه؟ وما هي الوظائف التي أبرزها لهذه الاحتفالات في المجتمع؟

2. أشكال وصور الاحتفال الشعبي في الرواية

2-1 الاحتفالات الخاصة

يتعلق الأمر باحتفالات استثنائية، ليست منتظمة أو موسمية، فهي مرتبطة بمناسبة أو حدث ما. وفي النص وصف لثلاثة احتفالات خاصة، هي الزواج والختان وحفلة وكيرة بناء رياض شيخ القبيلة.

فالزواج له احتفالاته وطقوسه، قد يكون هذا الزواج لفرد واحد، وقد يكون زواجا جماعيا، كما هو الحال بالنسبة للعرسين اللذين صورهما الكاتب في نصه. وقد يكون للعامل الاقتصادي دور في التعجيل بالزواج أو تأخيره، وهذا ما يؤكده الكاتب بقوله: "قررت الأسرة في ذلك العام ذي الزرع الجيد، عام تسعة وثلاثين، تزويج عدد من أبنائها، إذ بلغ بعضهم وجاوز آخرون سن التأهل، أي اتخاذ الأهل بالزواج"[5]. فهذا المقطع يبين أن الزواج كان جماعيا، وأن الموسم الفلاحي الجيد كان له دور أساسي في قرار الزواج، بدليل تأكيد النص على أن البعض جاوز سن التأهل للزواج، وأن الهدف من الزواج هو جمع الأهل وتكوين أسرة.

للعرس طقوسه الخاصة، تختلف من منطقة إلى أخرى، فما هي طقوسه في المنطقة التي ينحدر منها الكاتب؟ وكيف صور النص هذه الطقوس؟ يبرز الكاتب جانبا من مظاهر العرس بقوله: "أهازيج النساء وهن يضعن الحناء في رجلي العروس وفي يديها... ثم أهازيج مشط رأس العروس، ثم أهازيج إلباسها حلة الخروج إلى دار زوجها، يختلط فيها صراخ شماتة أهل العريس وبكاء أمها وصاحبات دارها، ثم لغط الركب المصاحب للعروس وهي فوق بغلة، مصحوبة بأهلها وبمن جاؤوا للإتيان بها من أهل العريس، ثم أهازيج استقبال ركب العروس والضجة المصاحبة لدخولها إلى دار زوجها"[6].

بعد هذا التلخيص لمراسيم العرس، ينتقل الكاتب لذكر بعد التفاصيل لسير العرس، بدءا بلحظة إعداد العروس لحفل الزفاف، وما يرافقه من نحيب وعويل حقيقي أو مصطنع، تعبيرا عن ألم مفارقة الأهل، مرورا بمراسيم

الرحلة إلى دار الزوج، وما يتطلبه ذلك من اختيار أحسن الأكفاء من عزاب أقارب العروس لتركب خلفه، وما يجب أداؤه مقابل المرور في الطريق، فطقوس المنطقة تعتبر العروس: "كالبضاعة النفيسة لا يجوز تمريرها بالمجان"[7]، وصولا إلى دار الزوج وما يجب تقديمه للزوجة وللموكب المرافق من هدايا.

والعرس في مختلف المناطق يصاحبه ضرب للطبال عادة، أو على الأدوات والآلات المحلية، و "ضربات الزفاف كان لها معنى الجماع"[8]، والكاتب في النص يشير إلى طقس آخر من طقوس العرس في منطقته، لع علاقة بفعل الضرب، وهو محاولة ضرب العريس للعروس بقصبة، للاعتقاد بأن العلاقة بين الزوجين تكون أقوى إن هو تمكن منها.

أما المظهر الثاني من الاحتفالات الخاصة التي وصفها النص، فهو الختان، أو ما يعرف بالطهارة، فقد تمت الإشارة إليه من خلال ما تذكره الكاتب عن ختانه، وإن لم يسهب في وصف هذا الطقس والاحتفالات المصاحبة له، بل اكتفى بوصف سريع له حين قال: "يطغى على عويل الأولاد عند الختان أصوات الطلبة القارئين، والمنشدين المادحين، وزغاريد النساء، وحفل الختان أعظم من حفل العقيقة وأقرب إلى حفل العرس. وأم الطفل المختون في كامل حلتها البيضاء، وهي مدار التبريك، فلها المواساة في الصبر على ما سينزل أو نزل بوليدها من ألم: ولها التمجيد على أنها ولدت ذكرا يتأهل اليوم لرجولة كاملة. وصاحباتها يهيئن للأطفال بيضا مسلوقا يوضع في فم الطفل على شدة حرارته، والخيل تجري، والأطعمة تقدم للضيوف"[9]. فهنا إشارة إلى ما يرافق الختان من أمداح وأناشيد وزغاريد وطعام، وإشارة إلى مكانة ووظيفة الختان، باعتباره حسب الكاتب تأهل للرجولة الكاملة، ف "الختان وما يكون فيه من احتفال يعتبر مظهرا لإعلان ذلك"[10]، أي إعلان تأهل الطفل لمرحلة الرجولة الكاملة، لذلك تتقبل الأمهات التهاني والتمجيد، لأنها أنجبت ذكرا، فمكانة الذكر في المجتمع القروي لا نقاش فيها، وهذا سبق للكاتب تأكيده سابقا عند حديثه عن مكانة الولد مقارنة بالبنت، بقوله: "ليس الذكر كالأنثى"، اقتباسا من القرآن الكريم لقوله تعالى: (ليس الذكر كالأنثى)

وحفل الختان يتخذ طابعا اجتماعيا وانسانيا في غالب الأمر، وذلك عندما يصير حفل الختان جماعيا، يستفيد الفقراء من مناسبة ختان أبناء الأغنياء لختان أبنائهم، وقد أبرز الكاتب هذا الجانب الإنساني التضامني بقوله: "فأولاد الفقراء ومتوسطي الحال ينتظرون أن يقيم الحفل أهل الأطفال من بيوت من هم أكثر يسرا"[11]. فكلفة الحفل ليست في متناول الجميع، لذلك تنتظر الأسر الفقيرة مثل هذه المناسبات للاستفادة منها، وحتى إن أدى ذلك إلى تجاوز الطفل السن المعهود للختان.

والحفل الثالث الذي وصفه الكاتب هو حفل وكيرة بناء رياض شيخ القبيلة، والدافع لإقامة الحفل حسب الكاتب، هو العادة من جهة، والتي تقتضي إقامة حفلة بمناسبة بناء دار جديدة، ومن جهة أخرى تجنب اللمز من طرف الأعداء، خاصة إذا تعلق الأمر بشخص له مكانة هامة داخل مجتمعه. فصاحب الحفلة شيخ القبيلة، ومكانته تفرض عليه ضيوفا من نوع خاص، من قواد وأعيان وحكام النصارى وموظفين إداريين. وهذا يقتضي حفلا كبيرا بمواصفات خاصة من حيث الأكل والشرب والفرجة. حفل بدأ الاعداد له منذ شهرين: مما يبين حجمه وقيمته. ولم يفت الكاتب الإشارة إلى مكانة التكافل والتضامن العائلي في مثل هذه المناسبات، حيث قال: " تعبأ للحفل والضيافة إخوان الشيخ، أهل قبيلته، لأن ظهورهم في هذا المهرجان كان يليق بهم، يرهن شرف الجميع"[12]، فالعادة والمكانة تفرض تعبئة الجميع لإنجاح الحفل، لأن شرف العائلة محط اختبار في مثل هذه المناسبات. وقد يكون في هذه الإشارات لدوافع إقامة الحفلة انتقادات لبعض سلوكات المجتمع وعاداته، وإن لم يعبر عن ذلك الكاتب صراحة، من قبيل اللمز والحسد والضرب في أعراض الناس.

2_2 الاحتفالات الدينية

يحظى الجانب الديني بمكانة هامة داخل النص، سواء من خلال اللغة التي وظفها الكاتب، والتي تنهل الكثير من القرآن الكريم، أو من خلال ابرازه لمكانة الدين والقرآن الكريم خاصة في حياة القبائل البربرية، رغم عدم تمكنهم من اللغة العربية، أو من خلال الاحتفالات والمناسبات الدينية التي صورها الكاتب.

فشهر رمضان اعتبره الكاتب عيدا للكبار وللصغار، يتم إحياؤه بشعائر خاصة: "كان إحياء رمضان بمشاعر خاصة يجعل من أيامه ولياليه زمنا استثنائيا، يتلون رونقه باختلاف الفصول"[13]. ويبقى إحياء صلاة التراويح من أهم تجليات شعائر هذا الشهر، وخاصة ليلة القدر، حيث تتم إعادة كاملة لتلاوة الشهر بقراءة القرآن الكريم. وبذلك يتميز هذا الشهر الفضيل عن باقي الشهور بطقوسه وشعائره، وبأكله وأجوائه.

والاحتفال بذكرى المولد النبوي صوره الكاتب عند حديثه عن احتفال الفقراء التجانيين، فهو يتميز بقراءة أوراد الطريقة، وبقراءة السيرة النبوية، وبدروس الوعظ، يختتم الحفل بمأدبة طعام حيث: "يكون احتفال الفقراء المنتسبين في هذه المناسبة بالإسهام في شراء ثور وذبحه وإطعام لحمه في الزاوية"[14].

كما وصف الكاتب جانبا من الاحتفالات بعيد الأضحى، حيث أشار إلى تميز العيد بارتداء الملابس الجديدة، وبخروج الناس إلى المصلى في جو احتفالي. وفي اليوم الثاني يأخذ الاحتفال في المنطقة طابعا فرجويا، حيث تتميز الفرجة بتنوعها: "من طرب ومسرح. ويعتبر مسرح عيد الأضحى هو الفرجة الكبرى في الاحتفال الذي يدوم سبعة أيام. يقام بين العصر والمغرب في الساحة الوسطى للقرية حيث يتسنى للجمهور الجلوس على المرتفعات الطبيعية المحيطة بشكل يتيح التتبع الكامل للوقائع"[15]. وتجدر الإشارة هنا إلى الدور الذي تلعبه الطبيعة الجغرافية الجبلية للقرية، وذلك بخلقها لفضاء شبيه بفضاء المسرح، فالساحة وسط القرية والمرتفعات المحيطة بها تتيح الفرصة المناسبة لمتابعة أطوار الاحتفال بالشكل الأمثل.

مناسبة أخرى تتميز بالاحتفال، هي عاشوراء، والأطفال هم أكثر المعنيين بهذا الاحتفال، حيث يخرجون في ليلتها، ينتقلون من دار لدار، لجمع لحم القديد المتبقي من لحم أضحية العيد. وإقامة الوليمة في دار تفرغها لهم عائلة أحد المشتركين معهم. فيمكثون نهارين وليلتين في عشرة عزوبية. وهذا الاحتفال من طرف الأطفال بهذه الطريقة، والذي يختم بلعبة سيتم الحديث عنها لاحقا، له أهداف كما أبرزها الكاتب، وتتجلى في اعداد الأطفال لحياة الكبار.

ونظرا للمكانة الكبيرة للقرآن الكريم في القرية، يحظى الطلبة بحفلات خاصة تقام على شرفهم، من أجل تقدير مجهوداتهم وتكريمهم، ومن أجل: "استدرار خير كثير باستدعائهم وإطعامهم وإتاحة الفرصة لهم لقطع شظف عيشهم بلحظات فيها لذيذ الطعام وفرصة استعراض محفوظهم وعلامات تميزهم واعتدادهم بالانتساب إلى القرآن المقدس عند البربر"[16]، فالواضح من هذا المقطع أن هذا الحفل غرضه التكريم والتقدير، لكن في بعض الحالات قد يكون الغرض منه قضاء مصلحة خاصة، فالكاتب وصف في النص وليمتين أقامهما الوالد على شرف الطلبة، الأولى تكريما لهم، والثانية رغبة منه في ترطيب الأجواء بينه وبين فقيه القرية.

2_3 الاحتفالات بالمناسبات الوطنية

ارتبطت الاحتفالات الوطنية في النص بحدثين بارزين، أولهما زيارة السلطان سيدي محمد بن يوسف لمدينة مراكش، والثاني رجوعه من المنفى. فالمناسبة الأولى، والتي حضرها الكاتب في صغره ووصف بعضا من أحداثها، تميزت بالطابع الرسمي وبالتنظيم، عكس الاحتفالات السابقة الذكر والتي ينظمها الشعب لنفسه، ويقدمها لنفسه، فهذا الاستقبال رسمي له طقوسه كما يبينها الكاتب في قوله: "في يوم وصول السلطان خرج الجميع إلى الشارع الذي سيمر منه الموكب، ووقفوا أمام نافورة قريبة من الساحة المعروفة بساحة عرصة مولاي عبد السلام. وكانت الفرق الموسيقية على جنباتها تعزف رائق نغماتها. والحرس أمام الناس من النصارى ومن السود المعروفين بساليكان،

أي الجنود المستقدمين من السينغال، في إطار الجيش الفرنسي العامل بالمستعمرات"[17]. فوجود الحرس والجنود والفرق المتواجدة على جنبات الطريق، يعطي للاحتفال طابعا نظاميا قسريا، وهذا يتعارض مع طابع الاحتفالات الشعبية في شكلها العفوي، ففي هذه الاحتفالات: "الحشود المبتهجة التي تملأ الشوارع أو الساحة العامة ليست حشود عادية. إنها كل شعبي، منظم على طريقته، على الطريقة الشعبية، خارج وضد جميع الأشكال الموجودة للبنية القسرية الاجتماعية، الاقتصادية والسياسية، الملغاة نوعا ما أثناء مدة الاحتفال"[18]، فهذا الاستقبال لا تتاح فيه للحشود بالتصرف بكامل حرية، بل هي مقيدة بنظام يحرص على تطبيقه الحرص والجنود.

أما الاحتفال الثاني، فكان عفويا، غير منظم، عرفته القرية وباقي المناطق المغربية بمناسبة عودة السلطان من المنفى، حيث شكلت هذه العودة منعطفا مهما في حياة القبيلة. حيث تنفست الصعداء. وتوالت الحفلات في القرية، ففي كل ليلة غناء وطرب وجرأة غير معهودة، فبوادر الاستقلال أتاحت للناس الفرصة للتعبير عن آرائهم والاحتفال بكل حرية في الأماكن التي يريدونها، بل في قرية الولد قاموا بصنع تمثيلية ضد المستعمر وحلفائه: "توالت الحفلات في القرية العليا، في كل ليلة غناء وطرب وجرأة غير معهودة، كانت تصدر ممن يعتبرون من الأصاغر على من كانوا من الأكابر، فقد فهم الناس تلقائيا أن الاستقلال يتيح فرصة هذه الجرأة"[19].

2_4 ا لاحتفالات المصاحبة للموسم الفلاحي

تتميز الأعمال الجماعية الموسمية في البادية بطابعها الاحتفالي، فتجمع بذلك بين العمل وبين الاحتفال، فما بين جني الزيتون والدراس وإصلاح السواقي، يحظى الاحتفال بمكانة بارزة بغض النظر عن كلفته.

ففي موسم جني الزيتون، تعم القرية أهازيج ولقاءات وروائح عطرة وعطاء وفيض. تقام احتفالات على طول جني التمرة، من آخر الخريف ومدة البيع والعصر في فصل الشتاء. وتصاحب هذه الاحتفالات طقوس تعبر عن تقدير لما جادت به الأرض من خيراتها، فالاحتفال احتفاء بالمحصول وبالأرض. وهذا يؤكده الكاتب أيضا عند

حديثه عن الدراس، فخلال هذا العمل الجماعي التضامني، يحرص الناس على الاحتفال بطريقتهم الخاصة، وبطقوس معينة، تعبر عن تقديس الأرض وخصوبتها، فالمغاربة منذ القدم يقدسون الأرض: "شأنهم في ذلك كشأن غيرهم من المجتمعات الزراعية في كل البقاع، وهو تقديس يعزى إلى ارتباط الحياة، بما تنبت الأرض من زرع وما تخفي من معادن وكنوز".[20] وهذا التقديس للأرض، هو ما يبرزه الكاتب في المقطع التالي: "فيبدأ كل واحد من الذين اشتغلوا في الدراس من الشبان والكهول بشم الحبق ووضع الكحل في عينيه واستعمال المرآة في التزيين، ومثل ذلك لا يصدر من الذكور إلا في هذه المناسبة. وأثناء التزيين تصدر منهم تعليقات كلها إشارات إلى المعاني الكامنة في إسداء الشكر لهم بأسلوب مناسب، ينم عن تحية فحولة أعطت الدليل على قدرتها على الإخصاب، وحسن الرعاية من الحرث إلى نهاية جمع المحصول... فمن حق هؤلاء الفحول الذين استولدوها بعرق جبينهم حتى خلفت هذا الخير المتمثل في السنابل أن يأخذوا من تلك الزينة نصيبهم ويروحوا إلى أهليهم بعد العودة في المساء على تلك الحال من التشبب والمزاحمة للنساء وهن محل خصب من نوع آخر"[21]. فالرجال بمختلف أعمارهم يتزينون كعرسان يزفون للأرض التي شبهها الكاتب ضمنيا بالمرأة، والتي اجتهدوا في اخصابها بجدهم وكدهم حتى خلفت مولودها الذين يحتفلون بقدومه.

ولا يكتفى في هذه الفترة بالاحتفال أثناء عملية الدراس، بل يستمر الاحتفال في القرية أياما عدة، بحيث تفد على القرية فرق متنوعة من مهرجين ومغنين. فيمر عدد من الحكواتيين الذين يحملون الثعابين في صناديق لصنع الفرجة، والهدايون الذين يرتجلون أقوالا تدور حول الحكمة. كما يزور القرية مجموعة من المطربين المعروفين بالروايس المستعملين لآلات لا يعرفها الطرب المحلي. وتبقى فرقة إهياضن الأكثر صنعا للفرجة لاعتمادها على الطرب والتمثيل. أشكال الاحتفال هذه، وما تتضمنه من موسيقى وغناء يلجأ إليهما الإنسان: "في المناسبات والأعياد للتعبير عن أفراحه... واتخذهما في العمل للتسلية والترفيه وتخفيف الأعباء وتحديد النشاط"[22]. فالكاتب بوصفه لهذه الاحتفالات يبرز ما تعكسه هذه الأخيرة من جوانب للثقافة الشعبية، ومن بينها الأدب الشعبي.

ولا يقتصر الاحتفال على فترات الجني والتحصيل، بل حتى الأعمال التضامنية التي فيها خدمة للمصلحة العامة تمر في أجواء احتفالية، من قبيل ما وصفه الكاتب عما يصطلح عليه بتويزي، والتي كان يشرف عليها الوالد كل سنة لكنس سواقي القرية، وهي تتميز بطرافة الجو الذي يجري فيه الشغل الجماعي. يتميز هذا الحفل بترديد بعض الأشياء تثار فيها قضايا الحياة العامة للقرية بعيدا عن التعصب، وينتهي الحفل بتقديم الطعام الجيد وتحضير كؤوس الشاي.

تتميز طقوس هذه الأعمال التعاونية بكونها تجمع بين تقدير الشغل والاحتفال. هذه الأعمال أصبحت كمناسبة مقدسة يحتفى بها بغض النضر عن تكلفتها التي قد تتجاوز في بعض الأحيان تكلفة العمل نفسه.

3. المأدبة في الاحتفال الشعبي

ترتبط المأدبة ارتباطا وثيقا بالاحتفال، فهي تعتبر: "لبنة ضرورية لكل فرح شعبي"[23]، وهي تختلف عن الأكل والشرب اليوميين المشكلين لوجود الأفراد في كل الأيام. فهذه المأدبة تميل إلى: "الوفرة والشمولية"[24]، وإلى الجماعية باعتبارها تتويجا لعمل جماعي، أو باعتبارها جزءا من احتفال جماعي.

ويمكن النظر إلى تعاطي النص المدروس مع موضوع المأدبة من خلال مظهرين: الأول ارتباطها بالاحتفال عامة وبالزمن المرح خاصة، والثاني ارتباطها بالكد.

ارتبطت المأدبة في النص بالمناسبات السعيدة، من حفل للطلبة، أو الاحتفال بانتهاء بناء منزل، أو ختان أو احتفال أثناء بعض الأعمال الجماعية، ومثل هذه المناسبات تتطلب وليمة خاصة، تستلزم في الغالب مجهودا كبيرا وكلفة باهضة. فخلال حديثه عن حفلة الوكيرة، يصف الكاتب جانبا من مميزات الوليمة، وما يصاحبها من أشغال ومجهودات، ويتجلى ذلك عند حديثه عن توزيع المهام بين الإخوة، فمنهم: "مترصد في عزبات العائلة، حيث الأغنام والأبقار، لاختيار أجود ما يمكن ذبحه منها للشواء وغيره، ومن مستكمل لعدة الإدام، زيتا وسمنا وعسلا، ومن

باحث عن أفاويه في أسواق المدينة تتطلبها أنواع من طعام الأعيان، عدا ما هو مألوف في دار الشيخ ولا يذوقه عامة الناس خارجها، ومن محتسب لما ينبغي إعداده من رؤوس الطير دجاجا وحماما وإوزا"[25]. يلاحظ من خلال هذا المقطع الطابع الخاص للوليمة، فأكلها مما لا يذوقه عامة الناس خارجها، وفي الإطار نفسه يرى باختين: "إن صورة الأكل والشرب في الاحتفال الشعبي لا تقتسم شيئا مشتركا مع الحياة اليومية الثابتة وإرضاء فرد مفرد"[26]، فأكلها خاص وشربها خاص مما لا يتناول يوميا، أو لا يتناول بالوفرة التي تميز وليمة الاحتفال.

هذه السمة الخاصة المميزة للمأدبة يؤكدها الكاتب في موضع آخر، وذلك حين وصفه لوليمة حفل أعده الأب للطلبة: "كانت زردة (وليمة) أكل فيها الحاضرون من الأطعمة ما لا يجدونه في حياتهم إلا نادرا"[27]، بل شبه قطع الحلوى الموزعة على الطلبة بالتحفة، نظرا لتفردها وخصوصياتها: "يطاف عليهم بحلاوى لا تجود أيامهم بمثلها ولا ترى إلا في المدن، لأنها تذوب في الفم كالسكر، وهي بطعمها العسلي، وتشققها تحفة يحب الواحد منهم أن يخبئها إلى أن يمضي بها فيهديها أو يختلي بها لطرافتها وغرابتها شكلا ولونا ومذاقا"[28]. فالواضح هنا المكانة والعناية التي تعطي للمأدبة في الاحتفالات، فأكلها يجب أن يكون مميزا ووفيرا ومتنوعا.

هذه بعض الصور التي تبرز قيمة مأدبة الاحتفالات والمناسبات الخاصة في المجتمع المغربي كما وصفها النص، ولمأدبة العمل الجماعي طابع خاص بها كذلك. فالعمل الجماعي التضامني في القرية المغربية بمثابة طقس مقدس، طقس يجمع بين تقدير الشغل وبين الاحتفال، والأكل جزء له حضوره القوي في هذا الطقس.

فالأكل مرتبط بالكد، ومنذ القديم "كان الأكل غير منفصل عن الكد، كان تتويجا للكد وللصراع"[29]، ونظرا لكون الكد يتميز بطابعه الجماعي في الغالب، فالأكل كذلك يكون جماعيا، و "المجتمع بأسره يساهم فيهما على قدم المساواة. وهذا الأكل الجماعي، هو تتويج لعمل جماعي... بل هو حدث اجتماعي"[30]. هذا المبدأ المتمثل في

الإسهام في العمل والأكل معا، والذي أشار إليه باختين، نجده في المجتمع المغربي راسخا بقوة، لدرجة وصفه من طرف الكاتب بالقدسية.

فجانب المساهمة الجماعية في الكد والأكل أشار له الكاتب حين وصفه للاحتفال المصاحب للأعمال الجماعية التضامنية بقريته، خاصة فيما يسمى بتويزي، حيث يتم فيها: "تقديم الطعام الجيد الذي يأتي لحمه من ذبيحة يسهم الناس في شرائها، كما يسهمون في إحضار لوازم الشاي"[31]. فالإسهام يكون في العمل بتقسيم الأدوار، وفي الأكل شراء وتحضيرا.

اما الجانب المتعلق بقدسية هذه الأعمال والاحتفال المصاحب لها، فنجد الكاتب يقول عن هذه الأعمال بأنها: "أعمال أشبه ما تكون بالطقس المقدس إذا قيست بالمجهود المبذول فيها كل عام"[32]، أعمال لها تقاليد خاصة، فالأمر لا يتعلق بمجرد شغل متوقف على خدمة معينة، بل احتفال قد تتجاوز كلفة وليمته في بعض الأحيان، كلفة دفع أجرة لإنجاز الشغل نفسه.

4. اللعب والاحتفال

علاقة اللعب بالاحتفال علاقة وطيدة، قد يكون هذا اللعب جزءا من الاحتفال، أو يشكل اللعب العادي في حياتنا اليومية نوعا من الاحتفال لكونه يجمع بين المرح والطابع الجماعي. واللعب: "يخرج الإنسان من ربقة الحياة العادية ويحرره من قوانينها وقواعدها، ويستبدل الأعراف الجارية بأخرى أشد كثافة ومرحا وخفة"[33]. واللعب لا يقتصر على فئة سنية محددة، فلكل ألعابه، تختلف مظاهرها ووظائفها من فئة لأخرى. فاللعب للصغار قصده معروف، أما بالنسبة للكبار فقد "أوجدته لهم في كل المجتمعات ضرورة الترفيه عن النفس وكثرة أوقات الفراغ، وخاصة في المجتمعات الزراعية حيث العمل غير مستمر. ومن هنا يمكننا القول بأن اللعب وجد منذ وجد العمل ووجد تبعا له وقت الفراغ، إذ بحث الإنسان عن وسيلة للارتياح من عناء العمل ولتمضية ما يفضل له من وقت"[34].

في النص المدروس، وصف الكاتب بعضا من الألعاب التي ميزت طفولته، فهناك ألعاب أشار إليها بكونها جزءا من احتفالات شهدها، من قبيل الألعاب المصاحبة لفرقة إهياضن المتجولة، فهذه الفرقة "تجمع بين اللعب البهلواني وبين متعة الطرب والتمثيل"[35]. أو مثل المهرج في حفلة الوكيرة الذي تعمد الغش في لعبة الورق ليخلق بذلك فرجة بعد ضبطه من طرف القائد وتعليقه في شباك، هذه الفرجة "انصرفت بها الأنظار عن كل الراقصين والمغنين والمحتفلين من الفرسان"[36]. فهذه الألعاب هي جزء من الاحتفال، بل قد تصبح هي صلب الاحتفال، هذه الألعاب دورها ووظيفتها المرح والفرجة والترويح عن النفس، والخروج كما سبق ذكره من صرامة الحياة العادية، ومن قوانينها وقواعدها.

بالإضافة إلى هذه الألعاب، هناك ألعاب يمارسها أهل القرية من صغار وكبار. ألعاب بعضها يومي، وبعضها موسمي.

فمن الألعاب التي ذكرت في النص، لعبة الجمل التي يمارسها الأطفال في عاشوراء، وهي لعبة مبنية على مكيدة، يرى الكاتب أن لها دورا في تأهيل الصغار: "وفي اليوم الأخير الذي هو بدر التمام من شهر المحرم يقيمون لعبة تسمى لعبة الجمل، وهي لعبة لا يفشى سرها، بل يظل مكتوما لأنها تصلح لتأهيل الصغار لمكايد الكبار"[37]. فهذه اللعبة تجمع بين متعة اللعب ووظيفة تأهيل الصغار عن طريق المكائد، فاللعب ليس فقط تسلية، بل هو في بعض الأحيان: "أعلى من كونه مجرد تجزية مبتذلة للوقت"[38].

في مقابل هذه اللعبة الموسمية، والتي يرى الكاتب أن لها فوائد للصغار، هناك لعبة يمارسها الكبار بلية، وهي لعبة الورق. هذه اللعبة، وخاصة المسماة التريس، التي كان يلعبها الوالد مع أصحابه لها طابع خاص، فاللعب يصاحبه "لغط وغمز ولمز وتنافر يتلوه اتهام بالغش أو تنافر بسبب عدم تقبل الهزيمة"[39]، فأثناء اللعب تلغى التراتبية،

وتهتك الحشمة، ويسود الهزل والحرية والصراحة، وهذا قريب من جو الاحتفال، حيث: "للعبارات الفاحشة بدورها حقها في الوجود داخل جو الحرية والألفة"[40].

والملاحظ من خلال وصف الكاتب لهاتين اللعبتين، وجود نوع من التناقض في الوظائف التي تؤديها، فالأولى موجهة للصغار اعتبرها ذا أهمية، تجمع بين التسلية والإفادة، والثانية يمارسها الكبار اعتبرها مضيعة للوقت، يصاحبها جو فيه خروج عن الحشمة والوقار، وفيه يسود التنافر والاتهامات المتبادلة بالغش.

خاتمة

يعد الكاتب أحمد التوفيق من الروائيين المغاربة القلائل، الذين وظفوا أشكال وصور الاحتفال الشعبي في المتن السردي. فقد استثمرها بطريقة تبرز تنوعها وتعددها: احتفالات خاصة، احتفالات دينية، احتفالات مصاحبة موسم الفلاحي... لقد عمل على إبراز الوجه الآخر للمجتمع البربري، وخاصة مسقط رأسه "إمرغن" والمناطق المجاورة له.

إذا كان "ميخائيل باختين" في مؤلفيه: "شعرية دوستويفسكي" و "أعمال فرانسوا رابليه والثقافة الشعبية في العصر الوسيط وإبان عصر النهضة" يروم من خلال دراسته هذه، إبراز أن صور الاحتفال الشعبي الموظفة في الرواية، استطاعت أن تصير سلاحا قويا للسيطرة على الواقع ونقده، في مقابل ذلك يوظف "أحمد التوفيق" الاحتفالات في روايته احتفاء بالمجتمع وبثقافته وهويته، عن طريق استرجاع الذكريات والوقائع في شتى مكوناتها. فأغلب شخصياته من صميم واقعه، تتفاعل وتتحرك في مسرح الأحداث، دون خلفية أو إيديولوجية معينة. إلا أن هذا لا يعني خلوها التام من النقد البناء الذي يهدف إلى تثمين بعض الاحتفالات والاحتفاء بها، وانتقاد البعض الآخر ولو بشكل غير صريح.

الهوامش:

[1] _ عبد الكبير الخطيبي، ترجمة محمد برادة، في الكتابة والتجربة، ط 2، منشورات عكاظ، الرباط، 1989، ص: 47.

[2] _ ميخائيل باختين، ترجمة شكير نصر الدين، أعمال فرانسوا رابليه والثقافة الشعبية في العصر الوسيط وإبان النهضة، ط 1، منشورات الجمل، 2015، ص: 357.

[3] _ نفسه، م س، ص: 330.

[4] _ ميخائيل باختين، ترجمة جميل نصيف التكريتي، شعرية دوستويفسكي، ط 1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1986، ص: 178.

[5] _ أحمد التوفيق، والد وما ولد طفولة في سفح الظل، ط 2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2011، والد وما ولد، ص: 21.

[6] _ نفسه، م س، ص: 231.

[7] _ نفسه، م س، ص: 234.

[8] _ ميخائيل باختين، ترجمة شكير نصر الدين، أعمال فرانسوا رابليه والثقافة الشعبية في العصر الوسيط وإبان عصر النهضة، ط 1، منشورات الجمل، 2015، ص: 267.

[9] _ أحمد التوفيق، والد وما ولد طفولة في سفح الظل، ط 2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2011، ص: 81.

[10] _ عباس الجراري، من وحي التراث، مطبعة الأمنية، الرباط، 1971، ص: 91.

[11] _ أحمد التوفيق، والد وما ولد طفولة في سفح الظل، ط 2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2011، ص:81.

[12] _ نفسه، م س، ص: 17.

[13] _ نفسه، م س، ص: 56.

[14] _ نفسه، م س، ص: 74.

[15] _ نفسه، م س، ص: 188.

[16] _ نفسه، م س، ص: 129.

[17] _ نفسه، م س، ص: 139.

[18] _ ميخائيل باختين، ترجمة شكير نصر الدين، أعمال فرانسوا رابليه والثقافة الشعبية في العصر الوسيط وإبان عصر النهضة، ط 1، منشورات الجمل، 2015، ص: 330.

[19] _ أحمد التوفيق، والد وما ولد طفولة في سفح الظل، ط 2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2011 ص: 273.

[20] _ عباس الجراري، من وحي التراث، مطبعة الأمنية، الرباط، 1971، ص: 91.

[21] _ أحمد التوفيق، والد وما ولد طفولة في سفح الظل، ط 2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2011، صص: 153-152.

[22] _ عباس الجراري، من وحي التراث، مطبعة الأمنية، الرباط، 1971، ص: 95.

[23] _ ميخائيل باختين، ترجمة شكير نصر الدين، أعمال فرانسوا رابليه والثقافة الشعبية في العصر الوسيط وإبان عصر النهضة، ط 1، منشورات الجمل، 2015، ص: 359.

[24] _ نفسه، م س، ص: 359.

[25] _ أحمد التوفيق، والد وما ولد طفولة في سفح الظل، ط 2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2011، ص: 18.

[26] _ _ ميخائيل باختين، ترجمة شكير نصر الدين، أعمال فرانسوا رابليه والثقافة الشعبية في العصر الوسيط وإبان عصر النهضة، ط 1، منشورات الجمل، 2015، ص: 388.

[27] _ أحمد التوفيق، والد وما ولد طفولة في سفح الظل، ط 2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2011، ص: 44.

[28] _ نفسه، م س، ص: 128.

[29] _ ميخائيل باختين، ترجمة شكير نصر الدين، أعمال فرانسوا رابليه والثقافة الشعبية في العصر الوسيط وإبان عصر النهضة، ط 1، منشورات الجمل، 2015، ص: 363.

[30] _ نفسه، م س، ص: 363.

[31]_ أحمد التوفيق، والد وما ولد طفولة في سفح الظل، ط 2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2011، ص: 176.

[32]_ نفسه، م س، ص: 153.

[33]_ ميخائيل باختين، ترجمة شكير نصر الدين، أعمال فرانسوا رابليه والثقافة الشعبية في العصر الوسيط وإبان عصر النهضة، ط 1، منشورات الجمل، 2015، ص: 305.

[34]_ عباس الجراري، من وحي التراث، مطبعة الأمنية، الرباط، 1971، صص: 103-104.

[35]_ أحمد التوفيق، والد وما ولد طفولة في سفح الظل، ط 2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2011، ص: 156.

[36]_ نفسه، م س، ص: 20.

[37]_ نفسه، م س، ص: 108.

[38]_ ميخائيل باختين، ترجمة شكير نصر الدين، أعمال فرانسوا رابليه والثقافة الشعبية في العصر الوسيط وإبان عصر النهضة، ط 1، منشورات الجمل، 2015، ص: 306.

[39]_ أحمد التوفيق، والد وما ولد طفولة في سفح الظل، ط 2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2011، ص: 256.

[40]_ ميخائيل باختين، ترجمة شكير نصر الدين، أعمال فرانسوا رابليه والثقافة الشعبية في العصر الوسيط وإبان عصر النهضة، ط 1، منشورات الجمل، 2015، ص: 320.